

+

الصناعات الحرفية السياحية اللبنانية والتنمية المستدامة

"تجربة بحث"

اعداد: علي بزي

BAZZIALY@hotmail.com

أولاً: الحرف التقليدية السياحية ضمن الأبحاث الأنثروبولوجية.

تهدف الدراسة الأنثروبولوجية في حدودها العملية بالرجوع الى أرض الواقع، والإطلاع على التفاصيل المعرفية كافة، والتوصل الى تحديد إطار نظري لواقع معرفي متسلسل ومتربط في مختلف مواد ومكوناته.

وتعتبر تنمية الحرف التقليدية ضمن البنية المجتمعية، إحدى القضايا المعرفية في مجتمعنا، إنطلاقاً من دراستها الميدانية الواقعية بأبعادها المختلفة من: إقتصادية، إجتماعية، ثقافية وسياسية وغيرها.

مع التأكيد على أن الحرف الشعبية التقليدية والسياحية هي جزء من كل. فهي مرآة الموروث الشعبي، الذي يندرج في نسق ثقافي يترابط وظيفياً مع باقي الأنساق بعملية تساند تتأثر بعضها البعض. فهي ظاهرة يضاف إليها ظاهرات تشكل حياة المجتمع في مرحلة معينة، فللحرفة أدواتها، ومواردها وطريقة صنعها وحرفيوها اونواعها وسلعها وعلاقاتها الإجتماعية والإقتصادية ولغتها و تاريخها والظروف التي تؤثر وتتأثر بها. فالحرفة هي حسيطة تعاون بين مختلف هذه المتغيرات الجغرافية والبيئية والثقافية والتربوية والتاريخية والاقتصادية والسياسية والإجتماعية.

وهنا تبدو أهمية التواصل بين المشتغلين بمجال العلوم الانسانية عامة والعلوم الإجتماعية والأنثروبولوجية خاصة لما يمكن أن يقدمه الباحث لزميله من معطيات وخلاصة تجربته وكشف بعض الخفايا التي تساعد في التوضيح.

وتتميز الحرف التقليدية السياحية بالمهارة اليدوية والخبرة الفنية المتوارثة التي تجعل الأشياء المحيطة نافعة وذات قيمة يستعملها الإنسان. وهي عملية مختلفة عن التصنيع بمفهومه الحديث وربما المرحلة التي تسبقه.

ان تجربتنا البحثية المتواضعة في الدراسات الأنثروبولوجية تركزت على مجمل الحرف التقليدية محليا وعلى الصعيد الوطني، لتحديد دور الحرفة ووظيفتها. بحيث إعتدنا على مسح شامل لهذه الحرف في المناطق الجغرافية الآتية:

- الأحذية: بنت جبيل، النبطية، صيدا
- الفخار: راشيا الفخار، الغازية، جسر القاضي، ديركوشة، الناعمة
- الزجاج المنفوخ: الصرند
- النجارة التقليدية: صيدا
- مراكب الصيد: صيدا، صور، الصرند، الأوزاعي بيروت، طرابلس
- شباك الصيد: كل مراكز الصيد على الشاطئ اللبناني
- المبيض: جوبا
- السلال: كفريا
- الصابون: صيدا، وأماكن متفرقة....
- المونة والمواد الغذائية: موزعة على عدة أماكن....
- المنجد: صيدا، بنت جبيل¹
- السكاكين: جزين، أنصار²
- المكانس: الغسانية، بليدا³

¹³⁻¹ هذه الحرف متوقفة عن الإنتاج حالياً في هذه المناطق

- المقشّات: الغسانية، خرطوم⁶
- الحياكة: قصر بيت الدين، الفاكهة، حاصبيا⁷
- النجارة التقليدية للأدوات الزراعية: رشاف⁸
- حياكة قش القمح: بليدا، بنت جبيل⁹
- صناعة الطربوش: شحيم¹⁰
- الجلالاتي: بنت جبيل، العديسة¹¹
- مساند قش: بنت جبيل، وأماكن متفرقة¹²
- شعر الماعز ندف، غزل وحياكة: شحيم¹³

هذا الجانب من دراسة مختلف الحرف، قد إستحوذ إهتمامي ولازال، نظراً لأهميته على المستوى الثقافي والإقتصادي، وعلى مستوى الحراك الإجتماعي والمهني.

ثانياً: واقع وتعريف الحرفة

1. تعريف الحرفة

"الحرفة هي عمل يدوي بشكل أساسي، تستعمل فيه الآلات المساعدة جزئياً ويسيطر عليه الطابع العائلي، حيث رب العمل يعمل لحسابه الخاص ويقوم بعمل أساسي في التصنيع بمفرده أو بمساعدة معاونين من أفراد أسرته أو عمال بأجر قليلي العدد. ويعمل برأسمال بسيط وهو الذي يدير عملية الإنتاج".⁴

2. واقع الحرف

مرت الصناعات الحرفية بتطورات متعددة ومختلفة يأتي في مقدمها عدم قدرة الانتاج على سد حاجات الحرفيين، إضافة الى الأحداث التي مرت على لبنان منذ أواخر القرن الماضي ما جعلها عرضة لتقلبات متعددة بحيث أصبح بالامكان توزيعها على الشكل الآتي:

أ. **حرف تلاشت:** مثل صناعة الطربوش، السكاكين التقليدية، شعر الماعز، الجلالاتي، السروجي، وغيرها....

⁴ التعريف هو استنتاج أعمال شخصية حقلية مع تعريفات الآخرين

ب. **حرف في حالة الضمور:** الحداد العربي، النجار العربي، حياكة القش، الحياكة، الدباغة، حياكة الصوف، التطريز

ج. **حرف مستمرة:** النجارة الفرنجية، الحدادة الافرنجية، الصابون، الحفر على الحجر، المنسوجات، الفخار، السيراميك، السكاكين الجزينية، الحرف الجلدية، المنتجات الغذائية وغيرها..

وقد مرت الحرف بشكل عام والسياحية خاصة بعصر ذهبي في الفترة ما قبل العام 1975، حيث أدت الأحداث الأمنية الى الإنحدار والتي مازال التأثير الى يومنا هذا.

ثالثا: الحرف التقليدية ومفهوم الثقافة

من خلال مقاربتنا لواقع الحرف التقليدية السياحية على مختلف المستويات، نحن هنا أمام نسق ثقافي إجتماعي ينضوي في منظومة متكاملة، بحيث انها تشمل كلاً معقداً، وهي أكثر من أن تحصى، بحيث أن مفهوم الثقافة واسع جداً وهو من أكثر المفاهيم التي عالجتها علوم متنوعة، ويمكن الإطلاع عليها من أي معجم والأبحاث المتعددة ذات الصلة. فالثقافة تحدد الإلتناء ببعده التاريخي والجغرافي والسياسي والاجتماعي، وهي التي تعطي للهوية بعدها ومعناها، وهذا ما يضعنا على منصة وحالة تواصل بين الحاضر والماضي. ويبرز أهمية التنوع الثقافي الذي يشكل مصدر غنى للسياحة الثقافية لأنه يقدم معطيات تثري النتاج وعلى مختلف الحقول ومنها الحرف السياحية. ومقاربتنا للحرف تم تحديدها ضمن أبعاد مختلفة:

أ. البعد القيمي: تعتبر الحرف ضمن الموروث الثقافي.

ب. البعد المعرفي: تشكل دراسة الحرف نوعاً من الجهود الميدانية والعلمية. ومرد ذلك لاعتبارات متعددة منها:

• الإهمال اللاحق بمثل هذه الدراسات.

• المحافظة على التراث

ج. البعد الإقتصادي: تعتبر الحرف جزء لا يتجزأ من الصناعة والبيئة والحالة التاريخية والسياسية والأمنية. وندرسها ضمن الواقع الإقتصادي والاجتماعي والتاريخي والحضاري.

د. البعد الثقافي: تجسد الحرف مظهراً وظيفياً ناتجاً عن تكامل بين معطيات متعددة. فهي إمتداداً وترابطاً لسياق تاريخي لما هو متوارث لدينا من مختلف الفنون والنشاطات.

هـ. البعد النفسي: تشكل الفنون والحرف اليدوية عملاً ماهراً يدوياً بالإضافة إلى كونه يجسد عملية متكاملة يتداخل ضمنها المستوى النفسي والجسدي.

و. البعد الرمزي: يمثل الناتج الحرفي رمزاً نركز عليه لإبرازه وتحليله. فالحرف الشعبية السياحية ترتبط بتاريخ المجتمع في أشكالها وتعبيراتها، وتستمد في أغلب الأحيان من رمزية المعتقدات أو من العناصر الطبيعية بأشكالها المتعددة ويضاف إليها البعد التاريخي، كل ذلك يتجسد بثمرة نتاج هي خلاصة كل ما تقدم.

1. من الثقافة الخاصة الى الثقافة العامة

تعتبر قضية الحرف السياحية التقليدية هي جزء من قضية إنعاش الصناعات التقليدية عامة وربطها بالسياق العام. والحرف السياحية تمثل خصوصية ثقافية وهي إحدى مكونات الثقافة الشعبية والتي تشكل جزءاً من منظومة ثقافية عامة. فضررب أو ضمور هذه المكونات الثقافية هي تمهيد لضررب الخصوصيات الثقافية للبلدان وخاصة النامي منها أو المسيطر عليها. لذلك يربط الباحثون في مجال السوسيولوجيا و الانتروبولوجيا الثقافية بين مفهومي الحرف والانتماء وخصوصاً مفهوم الانتماء الوطني. وحالياً ومع حالة التناقف المتنامية يسود الانتماء الى أشكال ومفاهيم حديثه والتمتيزه بشكلها المشوه والمنقطع عن الجذور المحلية... ما يؤدي الى خواء روحي بما يتضمن من خصائص مختلفة، وأبرزها الأبعاد الأخلاقية والقيمية، وهنا يبرز البعد الثقافي المتعدد الأوجه....الخ

ورغم قلة المؤسسات الحرفية السياحية الصغيرة على مستوى الوطن، فإنها تعاني من الجمود تبعاً للظروف المحيطة، ما يؤدي الى عدم القدرة على الاندفاع والمزاحمة، وإنخفاض الانتاجية.

وهنا لا بد من الإنتباه أن لا نضع العلوم العصرية بأشكالها المختلفة والمتعددة، وكأنها في موقع متناقض مع الموروث الثقافي، وما يبرز أهمية الفهم المتعمق للحالتين في أي تخطيط

تتموي ومستدام. لذا لا يمكن ان نفصل الواقع عن الجذور وبالمقابل أن لا ننقطع عن كل ما هو جديد.

رابعاً: لبنان الجغرافيا والتاريخ والعلاقة بالحرف

هناك أهمية للتاريخ كما للجغرافيا ونحن نتكلم عن جانب تراثي وثقافي لبلد ما، وهذا ما ينعكس على المنظومة الثقافية وهي نتاج متكامل، يدخل ضمنها التاريخ كما الجغرافيا والنتاج الحضاري والثقافي المتراكم. وبما أننا نتكلم عن جزء بسيط من هذه المنظومة الثقافية وهي الحرف السياحية، وهي التي تتأثر بمجمل المعطيات والتي لها طابع التعقيد كونها جزء من هذا المركب الثقافي.

ومقاربتنا للواقع الجغرافي والتاريخي للبنان نتلمس من خلاله أبعاداً ومؤثرات على البنية الثقافية. وهنا تبرز أهمية التاريخ العلمي، والتاريخ هو سياسة الماضي، وسياسة الحاضر هي تاريخ المستقبل، ومن يجهل التاريخ فهو كالطبيب الذي لم يدخل مستشفيات أو مراكز صحية لمعرفة الأمراض السابقة والطابع الصحي العام للمنطقة التي يعمل فيها. والتاريخ الذي نقصده هو مدرسة سياسية اجتماعية لا يكتفي بسرد الوقائع الماضية ووصفها وتدوينها وتبويبها وترتيبها. كما نجد من يعطي للتاريخ بعداً فلسفياً مع الإلمام بالتوجهات الاجتماعية أو السياسية... الخ، ويدعمها بوثائق ومعطيات تاريخية صحيحة. السؤال هنا: أين هو موقعنا كباحثين في مجال الأنثروبولوجيا أو علم الاجتماع؟ هنا نستعين بمؤسس علم الاجتماع إبن خلدون الذي أعطي فلسفة علمية وعملية للتاريخ، وهو ما يعرف بالتاريخ الكامل، الذي يستخلص من حياة الشعوب وتطورها عبر المراحل المتتابعة، مبيناً التحركات والنشاطات لمختلف ميادين الحياة، كل ذلك ضمن مسار تاريخي مرتبط بالعوامل الطبيعية والجغرافية، وهنا بدأ التاريخ يأخذ الشكل العلمي، فهو ليس مسلسلاً من الأحداث الصغيرة، بل مزيج من أحداث كبرى ومتنوعة، يحاول تقديم حقائق عامة يستخلص منها تنوع الخاص واكتشاف الأسباب ثم السنن والثوابت التي من خلالها تشرح المسلسلات المدونة، فالتعاشي الاجتماعي والتتابع التاريخي هما في علاقة جدلية، وهنا مبدأ إبن خلدون الذي أعطى مفهوم ومعنى للتاريخ ولكن بشرط أن نحسن القراءة والتفسير.

فالتاريخ يمدنا بربط الحاضر بالماضي لينطلق من الحاضر الى المستقبل، وهذا هو دور المؤرخ، ومن خلال ذلك لا يمكن فهم الواقع الآني إلا بفهمنا للماضي، وكذلك فهم الماضي من خلال الحاضر. ولبنان حافل بالمحطات التاريخية التي تركت بصماتها وأثرت في تاريخه وتراثه. وننطلق من الفينيقيين الذين إنتشرت مدنهم وممالكهم على طول الشاطيء اللبناني كما السوري، والذين جابوا البحار بتجارته ونشرهم للأبجدية، فقد تواصلوا مع كامل شواطيء البحر الأبيض المتوسط وشواطئ إفريقيا الغربية... هذا النفوذ والموقع كان محط أنظار العديد من الغزاة ابتداءً من الإغريق ويتوالى الأشوريين والكلدانيين والفرس والرومان والمماليك والصليبيين والعثمانيين والمصريين لينتهي المطاف بالإستعمار الغربي في أوائل القرن العشرين وأخيراً ليتكون لبنان المستقل في العام 1943. هذا الموزيك من التدخلات ترك أثراً على المكون الثقافي والحضاري لهذا البلد. فإذا استثنينا الجانب المأساوي من الإحتلالات والغزوات المتعاقبة، وهذا مجال واسع في تاريخ الحروب والسيطرة العسكرية. ونحن الآن بصدد التركيز على المتروكات الثقافية على أنواعها التي تركتها هذه الشعوب وأعطت الطابع الأركيولوجي والأثري للبنان، وهذا يشكل مادة مهمة على المستوى السياحي ويضاف الى ذلك الموقع المميز والطبيعة الفريدة وهو العامل الجاذب للآخرين عسكرياً أو ثقافياً وسياحياً، كل ذلك له تأثيره على البنية بشكل عام، ويطل بشكل أساسي وعام المنظومة الثقافية، وبشكل جزئي الحرف السياحية التي نحن بصدد دراستها.

وإذا تكلمنا عن لبنان الجغرافياً، فإننا ندرس العلاقة بين اللبناني والبيئة الطبيعية التي عاش فيها، والتي أثرت بعناصرها على ثقافته، والتي حصلت من خلال الصراع من أجل الوجود فعوامل المناخ والتربة وطبيعة الأرض والموقع... كل ذلك يشكل عوامل جوهرياً لتاريخ اللبناني. فالطبيعة الجبلية التي تضم أعلى جبال المنطقة والتي تتجاوز 3090 متر عن سطح البحر، والغني بالمياه والمتساقطات.. وبعض السهول الداخلية والساحلية، وهو في المنطقة المعتدلة الشمالية والملائمة لحياة الإنسان، كما النبات وهو الذي يحتوي أعلى نسبة تنوع نباتي في العالم، ويضاف الى ذلك إتصال مباشر وبشكل طولي مع البحر الأبيض المتوسط، حيث الشاطيء المتعرج برؤوس وخلجان ومرافئ متعددة. كل ذلك ساهم في تحديد طباع اللبناني، فقد طوع الأماكن الوعرة واستصلحها وهي المنحدرات وسفوح الجبال، وهذا ما أكسبه روح الإستقلالية والحرية، والبحر وهو الممر العالمي قديماً

خلق عنده النزوع الى الأسفار والمغامرات والتواصل مع بلدان العالم حيث إنتشر تاريخيا بالتبادل التجاري والثقافي

خامساً: الحرف التقليدية السياحية كنموذج بحث

الحرف السياحية هي موروثة يسيطر عليها طابع العفوية لجهة عدم تدوين عناصرها أو تسجيلها، وندرة الأبحاث التي تناولتها. فهذه الحرف التي لا تزال تختزن موروثة من الناحية العملية والنظرية. ومهمتها العلمية والعملية تصوير الواقع وتدوين ما تبقى في تاريخ وتراث وذاكرة الناس، بالتجميع والتوثيق للمعطيات كافة، وهذا أمر جوهري لكي نتلافى الوقوع في أخطاء من سبقنا من إهمال معرفي، وخصوصاً أننا الآن أمام واقع متغير بشكل مستمر وسريع، فالتدوين حاجة أساسية وضرورية لتأريخ حقبة معينة من حياة الناس وتسجيلها بحيث أنها تحمل في ثناياها جزءاً من هوية مجتمعنا، وهدفنا الأساسي معرفة النقاط الأساسية لواقع هذه الحرف بأبعادها التاريخية والجغرافية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية والرمزية، بغية المحافظة عليها بتسجيلها، وتدوين القيم السائدة والتعمق بتحليلها، وإبراز ماهيتها بتوجيه الأنظار إليها، وهذا مجال اكتشاف علمي وخاصة في مجال الانتروبولوجيا الثقافية. فالتراث واللغة وأشكال التطور في التاريخ الإنساني هو محور الدراسات الإنسانية.

1. المنهج والتقنيات

إعتمدنا في مقاربتنا للواقع الاجتماعي، وإنطلاقاً من مختلف الأبحاث، على الدراسة الحقلية، التي تعتبر من أسس البحث الانتروبولوجي مستخدمين في ذلك:

- أ. المسح الشامل للحرف
- ب. المقابلة كتقنية أساسية.
- ج. إستخدام برامج للفرز الإحصائي: SPSS – EXCEL

- د. المخبرون أو المعروفون الذين يملكون معطيات مهمة وخاصة مع كبار السن من الحرفيين، وهم الكنوز البشرية الحية.
- هـ. التصوير الفوتوغرافي.
- و. الملاحظة والملاحظة بالمشاركة.
- ز. البيانات الإحصائية
- ح. أشجار النسب

وقد إعتدنا المنهج التاريخي والمنهج التطوري والتزامني، لمعرفة الشواهد التي ترجع إلى الماضي لمحاولة تفسيرها. بالإضافة إلى النظرة التاريخية ببعدها الزمني ونقرنها بالبعد المكاني أي بنظرة جغرافية، وهنا فإن الجمع بين البعدين يؤدي إلى تكوين صورة حية للظاهرة المدروسة. بالإضافة إلى ما سبق تم أيضاً إعتداد المنهج الوصفي الإثنوغرافي لوصف هذه الثقافة، التي تمثل المظاهر المادية وغير المادية الثقافية في مجتمعنا.

إن تضافر المعطيات التي تقدمه هذه التقنيات بالمساندة والتوضيح أمر بارز في دعم كل واحدة للأخرى أو العمل مجتمعة. وبالطبع لكل واحدة مميزات وأهميتها المنهجية ولكن لابد من إبراز التقنية ذات الوقع الأفضل. فالمقابلة برزت أهميتها بشكل مميز، فالحوار المفتوح والصراحة وتبسيط الأمور والتوضيح ومعايشة الواقع كل ذلك يؤدي إلى فتح منافذ جديدة وكشف خفايا يجهلها الباحث لأن الحرفي يعيش الحالة. فالمقابلة أعطت حيوية في التعامل بين الباحث والمبحوث توصلنا من خلالها لمعلومات مهمة ومتنوعة لأن المقابلة المفتوحة تكون أكثر ديناميكية وأقرب للحياة. فالاجابات حرة وينتقي في أغلب الأحيان طابع التصنع لما يسودها من تلقائية ومرونة.

إن استعمالنا للصور الفوتوغرافية أمر إيجابي في نقل بعض التفاصيل وهي المساندة في عملية الشرح والتحليل. وكان من الأفضل إستعمال تقنية التصوير السينمائي الذي يحفظ الصوت والشكل والتفاصيل ويبين دقة التناسق بين العمليات الجزئية كافة، ما يعطي تقنية الملاحظة بعداً مضاعفاً إلا أننا لم نستطع استخدام هذه التقنية لأسباب مادية وأمنية.

وهنا لابد من إبراز أهمية البحث الحقل في الدراسات الانتروبولوجية، فهي الدعامة الأساسية لهذه الأبحاث للحصول وبشكل عملي على معلومات أكثر دقة وتعبيراً عن الواقع.

2. الحرف والسياحة

هناك علاقة متبادلة وجدلية بين الحرف التقليدية والسياحة، وهذا ما نجده في:

- المدن اللبنانية المتميزة بالطابع التاريخي والأثري، ومنها: مدينة صيدا، طرابلس، بعلبك، جبيل، صور، بيت الدين... الخ.
- المدن التي لها طابع سياحي، منها: بيروت، زحلة، ذوق مكاييل، البترون، بيت مري... الخ.
- المعارض الثابتة والمتنقلة
- المؤسسات المعنية بتسويق المنتجات الحرفية.

هنا نجد ترابط بين المدن الأثرية والسياحية والمؤسسات المتنوعة والمتعددة والإنتاج الحرفي، وهذا أساسي في تشجيع القطاع الخاص الذي يركز على الموروث لإنتاج مهارات متنوعة. وأيضاً يمكن الاستفادة من المواقع الأثرية حيث القلاع والحصون والأبراج، والمدن التاريخية والتي تحافظ على طرازها التاريخي، كما برزت مؤخراً المزارات الدينية وكذلك البيوت التاريخية... كل ذلك يمكن أن يكون المكان المناسب والملئم كسوق للحرف ولإنتاج التراثي.

- في هذه الأماكن نجد الحرف التقليدية المتنوعة، نذكر منها: العباءات، الحفر على الخشب⁵ خشب الأرز والزيتون⁵، النحاسيات، الحياكة، بورسلان، الزجاج، الفخار، التطريز، الجلود...
- أهمية ودور المجتمع الأهلي: برزت مؤسسات متعددة ضمن القطاع الخاص ساهمت في دعم وتطوير وتسويق الحرف، نذكر منها:

- a. الحركة الاجتماعية في لبنان والتي رعاها المطران غريغوار حداد.
- b. خان الصابون في صيدا أو متحف عودة.
- c. خان الصابون في طرابلس.
- d. الحرفي اللبناني، بيت المحترف اللبناني⁵، صالة العرض في السوق الحرة في مطار بيروت، الأسواق القريبة من الأماكن الأثرية والسياحية.

⁵ بيت المحترف اللبناني الذي أنشئ في العام 1968 من قبل وزارة الشؤون الاجتماعية، والغاية منه مساعدة المناطق وخاصة الريفية منها والمحافظة على الإرث الثقافي.

e. معارض خارج لبنان، وخاصة في دول الخليج العربي.

والأسواق الحرفية هي عبارة عن متحف تنقسه الحيوية والتناغم الإجتماعي والإقتصادي وبيتعد عن التداخل مع بيئة المجتمع. وهنا تأخذ الحرف طابع التسليع، وهنا المعاناة وتصبح شروط البقاء وإمكانيات صمودها ضئيلة، خاصة في غياب خطة تنموية شاملة تكون هي أحد أجزائها.

3. الحرفة السياحية والعمل العائلي

تقوم الحرف بشكل أساسي على فئات إجتماعية عريضة مكونة من صغار المنتجين، ويشكل التجمع العائلي اللبنة الأساسية للعمل الحرفي، إذ إن العلاقة جدلية بين الانتاج الحرفي والأيدي العاملة العائلية الأمر الذي يؤدي الى التماسك والترابط العائلي.

4. انتقال وتعلم الحرفة

ما يقارب ثلثي الحرفيين 63% تعلموا الحرفة بالوراثة، اما الثلث الباقي فتعلموها بواسطة معلم، والأقلية الباقية تعلموها لوحدهم.

5. انتماء الحرفي الى نقابة او ضمان اجتماعي

الملاحظة الأساسية ان الحرفيين يعملون كأفراد، ويدبرون شؤونهم بأنفسهم، فهم لا يجتمعون وبأغليبيتهم ضمن نقابة حرفية. ويضاف الى ذلك أنهم غير منتسبين للضمان الاجتماعي التي توفره الدولة.

6. مستهلكو الانتاج الحرفي

بعد السؤال المطروح على الحرفي بتحديد الزبائن الذين يستهلكون إنتاجه، فقد توزع المستهلكون على الشكل الآتي:

- المواطنون بشكل عام: 42%
- اصحاب الحرف الاخرى: 8%
- تاجر وسيط: 25%
- سائح: 15%
- مختلف: 10%

من الواضح ان علاقة الحرفي مباشرة مع الناس العاديين، الذين يشتركون تقريباً نصف إنتاجه، وهنا من المفترض مراعاة الذوق والسير مع كل جديد، لأن المستهلك أمامه عروضات متعددة ومتنوعة، فهل يبقى على ما تعود عليه. اما التاجر الوسيط "إسمه عليه" فهو يريد مصلحته ويتوخى الربح، إما بالضغط على الحرفي، أو باختيار وتحول لمنتج مماثل محلي أو مستورد. واللافت للنظر تدني مشتريات السياح وذلك مرتبط بالحالة الأمنية، وهذه النسبة تملو أو تتخفف تبعاً للظروف العامة. وبناء لهذه المعطيات يجب معرفة المشكلة التي تؤثر من أجل العمل على تصحيحها وهو التوجه الأساسي لبناء خطة تنموية مستدامة.

7. المعطيات المستخلصة للمشاكل والمعوقات التي تواجه الحرف التقليدية السياحية

توصلنا من خلال البحث الحقلّي لنتائج ملموسة ولم تعد مجرد أفكار ورؤى سريعة كما الناظر من خلال سيارة مسرعة، أو المنطلق بأفكار وإيديولوجيات ونظريات تطلق بعمومياتها. بل نرجلنا ميدانياً ودخلنا المحترفات وأماكن العرض، تحدثنا وتعايشنا مع الأشخاص بحيث نشاهد ونشارك حياتهم اليومية بكافة تفاصيلها. وأستوضحنا ما نجهله وربطنا الظاهرة بمثيلاتها باعتمادنا الدراسة الحقلية واستخدام تقنيات ساعدت في كشف الحقائق.

ومن الناحية العملية، ومع تنوع المعطيات تم إستخلاص النتائج الآتية:

أ. الأحداث اللبنانية وخاصة في العام 1975 ما زلنا نللم ذيلها، أحدثت خللاً في فصل الفرد عن ذاكرته، وسلخ الإنسان عن ماضيه ما يؤدي إلى أoxم العواقب. وحالة اللإستقرار والتدهور الأمني التي يعاني منها المجتمع اللبناني خلال فترات متقاربة أو متباعدة.

ب. السياسات المحلية وأثرها في إبقاء الأمر على ما هو عليه. فالواقع الإجتماعي يعيد إنتاج ذاته. وذلك للمحافظة على الأوضاع القائمة. فالأزمات تكسر المألوف وربما إفتعالها سبب أساسي للوصول لمثل هذه النتائج.

ج. ملكية الحرفي لوسائل إنتاجه، وقد تطورت من البسيط واليدوي إلى المعقد والآلي ولها دور أساسي كوسيط بين الحرفي ومادة الصنع. وقد تغيرت من حيث شكلها ومادة صنعها وطريقة إستعمالها. وإدخال الأدوات يختلف حسب الحرف ونوعية السلع المنتجة ومنافستها لمثيلاتها.

- د. الحرفي رأسمالي معوق بسبب طبيعة الملكية وضآلتها وغياب حرية الحركة الرأسمالية. فالرسميل ضئيلة فهي من المدخرات أو بيع عقار أو تعاون الأب مع أبنائه أو إخوته أو مساعدة بعض المغتربين الأقارب.
- هـ. الطابع العائلي المسيطر في علاقات الإنتاج، مع الاعتماد أحياناً على بعض الزملاء، إذ لا يمكن فهم الحرفة إلا بدراسة الحياة العائلية، لأنها تشكل علاقة تضامن أسري وثيق. وضرب التماسك العائلي هو أحد أسباب تدهور الحرف .
- و. بروز دائرة علاقات جديدة وخروج الحرفي من دائرة العلاقات الإجتماعية السائدة التي تعتمد صلة القرى من حيث السكن والزواج والعلاقات.
- ز. تتميز المؤسسة الحرفية بصغر حجمها وحجم الرأسمال الصغير. وضآلة عدد العاملين فيها وهذا مرتبط إلى حد ما بحجم الأسرة والظروف الإقتصادية المواكبة.
- ح. تتميز المؤسسات بتدني حجم الإنتاج وضعف الإنتاجية وإقفال العديد من المؤسسات.
- ط. توقيت العمل غير منتظم والسبب هو الطابع العائلي المسيطر. فالعمل يكون بحرية وحسب المقتضى. وإذا تعدى إلى الأجراء فيكون على حساب القطعة.
- ي. عدم ثبات الحرفي في العمل. وذلك يعود لعدة أسباب أبرزها الحالة الأمنية، ما أدى الى نزوح بعض الحرفيين من مسكنهم الأصلي وممارسة المهنة في أماكن اقامتهم الجديدة، ولكن معظمهم لم يتمكنوا من نقل المحترف لصعوبة وإرتباط العمل مع متممات رديفة.
- ك. عدم الإحساس بالإنتماء الوطني وهذا ما نلاحظه من خلال رغبة المواطن في الحصول على جنسية ثانية ومحاولة السفر بأية وسيلة. وهذا يحول المهنة الى حالة من عدم الاستقرار ويؤدي إلى إهمال الواقع وعدم المحاولة لاكتشاف الحلول لأية أزمة. فالمعالجة هي الهجرة وترك الوطن كطموح مفضل، وإن هجرة الحرفيين تعود الى رغبة البعض في الحصول على جنسية الدولة التي هاجر اليها من أجل ضمان مستقبل لأفراد أسرته جراء صعوبة إستمرار العمل بالحرفة التي كان يمارسها في لبنان .

ل. إبتعاد الشباب عن العمل الحرفي، وعدم توريث الحرفة، ومتابعة تعليم الأبناء في مراحله المتعددة، وعدم التخصص في مجال العمل الحرفي كان سببا في إبتعاد الاولاد عن عمل الالهل.

م. الإستغلال، والإحتكار، لأن أغلب الحرفيين لا يسوقون إنتاجهم بشكل مباشر، حيث نجد الوسطاء أو أصحاب المعارض والصالات، وغالبا لا يصرحون عن الكنز البشري الحي الذي أنتج السلعة. ويضاف الى ذلك عدم معرفة الحرفي بكيفية التسويق، والدراية والمعرفة لمتطلبات السوق ودراستها.

ن. عدم الإهتمام بالتنظيمات النقابية والتعاونية أو ربما تم تهيمشها أو ضربها، وأحيانا نجد روابط نقابية وتعاونيات لا علاقة لذوي الشأن بها، حيث تتدخل المصالح السياسية أو المادية....

س. سهولة التواصل بين الشعوب وإنتاج سلع شبيهه بالمحلي. حصل ذلك في إطار ظاهرة العولمة، وسيطرة مقولة "القرية الكونية" مع التحفظ على هذه المصطلحات. أمام هذه الهجمة والواقع الاقتصادي المضطرب الذي ترك آثاراً سلبية على البنية الاقتصادية المحلية بشكل عام، والحرف بشكل عام والسياحية جزءاً من هذا الكل. أهمية السوق في تطور الحرف وازدهارها، فمن خلال هذه الظاهرة أصبح هناك تدرج بانتقال الحرفة من إطارها الضيق الفردي إلى القرية ثم المنطقة ثم التصدير إلى الخارج. فمن الواجب التأكيد على أهمية السوق وإيجاده. أما الآن فإن غَرْوَ بلادنا "مبرمج وممنهج وربما مدجج". ومما لا شك فيه أن المنافسة هي إحدى الأسباب في وجود الأسواق. ويضاف صعوبة المنافسة مع البضائع المستوردة، وإنتاج وطني لا يجد الحماية، والإستيراد مسموح بالحد الأدنى من القيود، و الضرائب على المواد التي يراد تصنيعها تصل إلى 36%، و المواجهة مع قطاع التجارة الخارجية يجعل التجار يتحكمون بأسعار هذه الحرفة أو تلك. أدى ذلك الى إغراق الأسواق بالإنتاج المستورد، وخاصة الآسيوي المتميز بالأسعار الرخيصة والذي يقدم معطيات تراثية لبنانية. فقد تراجع في الانتاج وتناقص الطلب، ونراجعت القدرة التنافسية مع السلع المستوردة

والأقل كلفة، ومع إرتفاع أكلاف المواد الألية المستوردة من سوريا فرنسا إيااليا مصر اليابان والمانيا وغيرها. ويضاف اى ذلك تدني سعر صرف الليرة اللبنانية تجاه العملات الأجنبية. ع. تمرالحرف في ظروف خاصة في خضم متطور ومتغير بشكل مستمر وسريع. فهي جزء من كل يتفاعل مع ظاهرات خارجية وداخلية. فالحرفة هي إحدى الظاهرات وواقعها محصلة ونتيجة لكافة المؤثرات المحيطة. فحرف قد إندثرت وأخرى مهيأة للإندثار بعد أن بدأت الهوية الشخصية للمجتمع بالذوبان وظهور أشكال ونماذج جديدة نتيجة التفاعل مع المستجدات بإقتداء المغلوب بالغالب في إطار التبعية القائمة. ونجد الإعتماد على التقليد وغياب الإبداع فالانتاج أصبح مقتصرأ على تركيب ولصق أجزاء جاهزة مستوردة.

ما يثبت الحرف السياحية رغم كل التحديات، الأسباب الآتية:

- تفوق في الجودة
- تنوع التصاميم
- إعتداد السلع التي تقدم كهدايا، والتركيز على الطابع اللبناني الشرقي في الزخرفة والديكور.
- اللبنانيون الوافدون وأعدادهم تتزايد من دول الإغتراب.

8. الحرف السياحية والتنمية الشاملة والمستدامة

من خلال ما تقدم تبرز أهمية التخطيط التنموي والمستديم، لأن الحرف لا تجد الرعاية من قبل المؤسسات الرسمية، أما الدراسات والأبحاث فهي محدودة وهي ما نقوم به ضمن الدراسات الأكاديمية لم تأخذ طريقها الى من يصنع القرار. وهذه الحرف التي تنتج سلعا إستهلاكية مرتبطة بثقافة محددة، وإنتاج صغير تبعا لحالة من المد والجزر، حيث يعمل جزء لا يستهان به من الأيدي العاملة، وهي ميزة مهمة تشترك فيها معظم البلدان النامية. وهذه الحرف رغم مستواها المتدني فهي مصدر أولي للتراكم وهي التي يمكن من خلالها إنشاء صناعات صغيرة تستخدم المكننة الحديثة، فمع دعمها المنظم وحمايتها يمكن تطويرها.

والتنمية الشاملة والمستدامة هي المصطلح الشائع والمستخدم حاليا وعلى نطاق واسع. من أجل ذلك من المهم ربط هذا الموروث الثقافي بالفعل السياسي وخاصة التخطيط والبرامج السياسية، لأن ذلك يؤثر وبشكل مباشر على الحركة السياحية، وهنا فإن القرارات والتشريعات والخطوات

والقوانين التي تربط القول بالفعل وتراعي كافة المتغيرات المؤثرة. وإذ نؤكد على تنمية الحرف بحيث أن تطويرها هام وأساسي، لأن تواجدها يعمل على تأكيد شبكة من العلاقات على مستوى بنية المجتمع، فهي بحالة تواصل مع الآخرين وهم:

1. جمهور المستهلكين وأفراد المجتمع المحلي، أو الوافدين من أبناء الوطن أو المنطقة أو الأجانب.

2. تجار المواد الأولية،

3. تجار الإنتاج الحرفي، أو المسوقون والوسطاء بين الحرفي والتاجر.

4. الترابط العائلي،

5. التعاونيات الحرفية

6. النقابات.... الخ،

هذا التواصل يحقق نوعاً من المحافظة على القيم والعادات المتوارثة والتقاليد الإيجابية منها، ومن خلالها نحافظ على المعاش اليومي لشريحة من الناس وتعزيزها بشكل تراكمي، وبالمحصلة نعزيز الثقافة المحلية ببعدها التاريخي وتجلياتها البارزة والمؤثرة، ومن ثمة تعزيز الانتماء الوطني.

بالمقابل الاهتمام بالحرف التقليدية لا يقتصر على الحرفة بذاتها، بل هناك متممات مساعدة يجب توافرها، وكل ما هو مرتبط بالحركة السياحية، نذكر منها: الاهتمام بالبنى التحتية المتمثلة بالمواصلات وشبكة الكهرباء ومياه الشفة وشبكات التواصل... الخ، وخاصة في الأرياف، وبين المراكز الأثرية والتاريخية.

وبمطلق الأحوال هدف هذه الدراسات السعي مع الحرفيين الى تمكينهم وزيادة الانتاج من حيث الكمية والنوعية والإلام بالمعطيات التاريخية والأثرية وإضفاء البعد الجمالي والفني على الإنتاج... والهدف بالمحصلة حماية الناس من مخاطر التحولات المتسارعة التي تخضع لها مجتمعاتنا، وهنا يجب أن لا يقتصر الإهتمام على الحماية فقط بل السعي الى التطوير ومواكبة العصر.

ودعم الحرف لا يتطلب مساعدات مادية عالية، ولكن بالمقابل مردودها إيجابي لكثافة الأيدي العاملة وزيادة للقيمة المضافة، وإستغلال المواد الخام المحلية، كل ذلك يؤدي الى تنمية الحرف والعاملين في هذا القطاع.

ومن ضمن السياسة التنموية تبرز أهمية إدخال مواد الثقافة الشعبية في الإنتاج من خلال الفهم المعمق لأهمية هذه الثقافة، وهذا يجب تأكيده في المناهج التعليمية والبرامج الإعلامية، وخاصة في المعاهد المهنية الفنية، وهذا يوفر العديد من فرص العمل للخريجين.

وكذلك على المخططين والعاملين في مجتمعنا الاستفادة من تجارب الآخرين، وفي أكثر من بلد سياحي، في منطقتنا العربية أو عالميا، لما لديها من تجربة غنية بحيث كان التركيز عندهم على الحداثة والتقليد بالسير بهما معا، وتحقق من خلال ذلك انجازات مميزة، وهنا نذكر اليابان كمثال، وكذلك الصين، والهند والمغرب... الخ، بحيث حصل حماية للإنتاج الحرفي والعائلي وحقق ذلك نموا متزايدا وحالة من الاستقرار.

9. مجالات تنمية الحرف السياحية:

ب. مبادرة الدولة

الحرفي إنسان مكافح يستحق التقدير لأنه ناجح رغم كل الظروف والمستجدات، ويقوم بعمله بشكل طوعي بدون إرشاد أو تعليمات من الجهات الرسمية، فالدولة غائبة تماما، والحرفي متروك يصارع لوحده، فهو بحاجة للرعاية بالتأكيد على المتطلبات التالية:

- ضمانات اجتماعية،
- تأمينات صحية، وذلك بإقرار قانون الضمان الصحي للحرفيين، بغية شعورهم بالاستقرار.
- مقارنة الحرف تتوزع على أكثر من وزارة ومؤسسة رسمية، إذ يجب أن تستحوذ إهتمام وزارة السياحة، كما وزارة الصناعة ووزارة الاقتصاد ووزارة الشؤون الاجتماعية "التي تضم دائرة الحرف غير المفعلة"، كما يمكن أن تستحوذ إهتمام وزارة التعليم المهني والتقني

وأن تدخل في المنهاج التعليمي....الخ،" كل ذلك من باب التمني ووجهات نظر من باحث أكاديمي النظام السياسي لا يحتاج اليه!!!!".

- حماية جمركية، دعم المواد الخام المستوردة من خلال تخفيض الرسم الجمركي، فتح الأسواق والإغراق الحاصل من السلع المستوردة الذي يسيء وبحجم القطاع الحرفي، وهذا يفترض رفع الرسوم على المستورد والشبيه للإنتاج المحلي.
- المساعدة في توجيه الحملات الإعلامية وتسليط الضوء على الإنتاج وإبراز أهميته ومضمونه والتعريف بهذه المنتجات، من خلال: المؤسسات الإعلامية السمعية والبصرية، البلديات، المعارض، الهيئات الاجتماعية. لتسهيل وصول السلعة الى المستهلك وخاصة الوافد ولا سيما المحلي.
- إدخال تعليم الحرف السياحية بشكل خاص، أو الحرف بشكل عام، والتعريف بها في المناهج المعتمدة في التعليم وإبراز أهميتها وجمالها ووظيفتها.
- المساهمة في استعمال الإنتاج الحرفي السياحي بالمؤسسات الرسمية، وإعتماد الهدايا على المستوى المحلي أو عالميا، من الإنتاج الحرفي فائق الجودة والتركيز على أن يكون كذلك.
- تدريب الحرفيين وتنمية قدراتهم ومواهبهم والإرتقاء بالعمل اليدوي الفريد والمميز.
- تكريم الكنوز البشرية الحية من الحرفيين، وبشكل سنوي ودوري، وذلك عربون تقدير ووفاء.

ج. أهمية العمل التعاوني

ندرة وجود أشكال تعاونية حرفية في الوقت الحاضر. وقد تلاشت طوائف الحرفيين بحيث كان ما يعرف بشيخ المعلمين، له صفة مهنية بحسم الأمور المتعلقة بالمهنة وهو تنظيم تراتبي حيث يتألف من طبقات ويخضع الانتقال ضمنها لشروط قاسية. وكان ذلك لمصلحة المحافظة على الجودة والنوعية.

د. أهمية العمل النقابي

البارز الآن ضعف الالتزام النقابي أو تلاشيه الى حد ما، وإن وجد فإنه لا يتعدى المطالبة بزيادة الأجر أو بعض الأمور التنظيمية، إذ لا توجه المطالب لأهداف إقتصادية متكاملة، تطل الأجر والعمل والإنتاج والإشراف على تفاصيل ومواصفات الحرفة. وعدم وجود عمل نقابي سببه عدم الحاجة إليه إذ يغيب الصراع بين العمال وأرباب العمل، بسبب الانتماء العائلي الذي يربط هؤلاء.

خاتمة

ما نطمح اليه من خلال الدراسات هو الخروج بنتائج نظرية وتطبيقية لفهم واقعنا المعاش، وخاصة مع التحولات السريعة بربط العلاقة بين النظم والتفاعل العصري القائم. وخصوصا ان هذا المجتمع طامح لاقامة مجتمع عصري في بنيتة وله تقاليد وعادات عريقة. السؤال الذي يطرح هنا وعلى نتائجنا المعرفي ضمن الدراسات الانثروبولوجية او السوسيولوجية، فهل توصلت الى فهم وتفسير مجتمعنا المحلي؟ ومدى قدرة المفاهيم التي نستخدمها في تحليل ودراسة مجتمعنا؟

فالتوجه إلى هذه الحرف التقليدية السياحية كمجهود علمي ميداني لموضوع طال إهماله، هدفه إلقاء الضوء على هذه الحرف، والحفاظ على تراث قديم، ولفت النظر إلى واقعها القديم والمستجد. وذلك للإنطلاق من ثقافتنا الشعبية إلى الثقافة العالمية المتخصصة. وقضية الحرف السياحية والتقليدية هي جزء من موروث ثقافي ومن قضية كبرى في المجتمع، بعد أن طغى التصنيع بشكل عام على إقتصاد بلادنا، وتحولنا الى مجتمعات مستهلكة غير منتجة، ما أدى الى نوع من قلة الاهتمام بالانتاج الصناعي وإنخفاض ما تسهم به الصناعة في الدخل العام. رغم تزايد المنشآت الحرفية الصغيرة. هنا نشعر بالفعل بأشكالية نظرية باننا أمام ازمة، وهي بحاجة الى عرض وشرح ومقاربة علمية على المستوى الأنثروبولوجي والسوسيولوجي بالإضافة الى العلوم المتممة.

المراجع

- د. علي بزي، من أبحاثي الخاصة ذات الصلة بالحرف التقليدية:
- الخطة المبسطة للتنمية المحلية المقترحة لتجمع بلديات بنت جبيل، وزارة التنمية الإدارية والمفوضية الأوروبية، 2005.
 - الصيد البحري على الشاطئ اللبناني: الواقع الإقتصادي- الإجتماعي للصيادين. المفوضية الأوروبية، 2004.
 - الحرفيون في لبنان، بالتعاون مع منظمة الأونسكو، وجمعية التراث (مع مجموعة من الأساتذة). 2002
 - اقضية لبنان (بنت جبيل، مرجعيون، حاصبيا)، الخصائص السكانية والواقع الاقتصادي والاجتماعي. وزارة الشؤون الاجتماعية وبرنامج الأمم المتحدة الانمائي ومركز البحوث في معهد العلوم الاجتماعية. بيروت، لبنان 2001.
 - العائلة والنسق القرابي دراسة أنثروبولوجية.
 - الحرف التقليدية اللبنانية. 1996
 - توسع المدينة اللبنانية وتشكل الأحياء الجديدة والعلاقة بين القديم والجديد (نموذج بنت جبيل). 1983
 - بنت جبيل الذاكرة والحرب، دار النهار للنشر والتوزيع، لبنان، 2007.

الفاخوري _ راشيا الفخار _ جنوب لبنان



منتجات فخارية سياحية _ راشيا الفخار



سكاكين جزين_ جنوب لبنان



حياكة النول _ ذوق مكاييل _ جبل لبنان



الحياكة_الفاكهة_البقاع



حياكة العباءات _ حاصبيا _ جنوب لبنان



حياكة صواني القش_ بليدا _ جنوب لبنان



حياكة زخرفات من قش القمح _ بليدا _ جنوب لبنان



الزجاج المنفوخ والملون _ الصرْفند _ جنوب لبنان

